السورة الأولى

الفاتحة

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ ﴾

تحتلّ سورة (الفاتحة) مكانةً خاصّةً في هذه القراءة الجديدة للإعجاز اللغوي في القرآن الكريم. فهي وحدها التي يلتزم المسلم بتلاوتها في كلّ ركعةٍ من صلواته الخمس، وكذلك في سُننه ونوافله، ومع ذلك، وربّما بسبب ذلك، لا يتنبّه، وبتأثير أُلفته الشديدة لها، إلى ما في لغتها من إعجازٍ تجديديٍّ لم يعرفه العرب من قبل، وإلى ما تختصّ به من تفرّدٍ عجيبٍ يجعلها من الناحية اللغويّة سورةً فذّةً بين سُوَر القرآن.

وسنرى أنها تستقلّ بعدّة مواقع لغويّةٍ لم تعرفها بقيّةُ السوَر، فضلاً عن المواقع الجديدة الأخرى التي تشارك بها السور الأخرى، وأنّ في كلماتها التسع والعشرين ما لا يقلّ عن ٥٨ خصيصةً إعجازيّةً أدخلها القرآن إلى قاموس التعبير والتفكير العربيّ لأوّل مرة.

* * *

هل فكّرنا مرّةً في الحكمة من الجمع بين الصفتين في العنوان الوحيد الذي يتصدّر سور القرآن الكريم ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ وقد اشتُقّتا معاً من اسمٍ واحدٍ هو الرحمة؟ وهل يحمل اللفظان حقاً المعنى نفسه، أو حتى تلك المعاني المتقاربة التي اقترحها المفسّرون؟

لنعترفْ أولاً بأنهم لم يستطيعوا الإمساك بأيّ دليلٍ نبويٍّ أو لغويٍّ للتفريق بين معنييهما تفريقاً علميّاً حاسماً ومقنعاً. وإذا كانت العناوين تتطلّب عادةً تركيزاً واختصاراً، فكيف يتوالى لفظان مشتقّان من جذرٍ لغويٍّ واحدٍ في عنوانٍ مركّبٍ من أربع كلماتٍ لا أكثر، ثم يتكرّر هذا العنوان مائةً وثلاث عشرة مرةً في كتابٍ واحد؟!

ويتوضّح لنا الفارق الحقيقيّ بين اللفظين حين نسلّط أضواءنا على الخصائص اللغويّة للفاتحة، محاولين اكتشاف طبيعة الانعطافة اللغويّة الشديدة التي أحدثها الوحي الإلهيّ في قاموس الإنسان العربيّ الأوّل، وذلك باستحضارنا لأذنه وذاكرته الجاهليّة، واستبعاد آذاننا المعاصرة وذواكرنا القرآنيّة التي رضعت من المهد آياتِ الكتاب الكريم. حينذاك قد نستطيع تسجيل مقياس الهزّة التي أحدثت في أعماق العرب الأوائل ما أحدثت، وجعلت أكثرهم يعتنقون هذا الدين لمجرّد سماعهم لغةَ كتابه لا أكثر.

سننظر أوّلاً، كما سنفعل مع كلّ سورة، في ألفاظ الفاتحة ومصطلحاتها الجديدة، لننتقل بعد ذلك إلى تفحّص طبيعة الصيغ والعلاقات اللغويّة فيها، النحويّة والبيانيّة والفكريّة، تلك التي فاجأت العربيّ الأول، ثم نتلمّس فيها السبائك اللغويّة المبتكرة ممّا لم يعرفه العرب قبل القرآن، ثمّ الألفاظ والعبارات المنفتحة ذات الأبعاد والمفهومات المتعدّدة التي تتجدّد مع تغيّر البيئات الزمانيّة والمكانيّة، وهي نوعٌ جديدٌ من التعبير غدا من أهمّ الظواهر الأسلوبيّة للقرآن الكريم، ثمّ نتوقّف أخيراً عند (جوامع الكَلِم) وهي العبارات القرآنيّة المميّزة التي أصبحت سائرةً على ألسن العرب بعد الإسلام، أو هي ما تزال مرشّحةً لأن تكون كذلك في المستقبل.

ومن المهمّ التذكير، وسوف ندأب على هذا التذكير، بأنّ الوقوف عند نقطةٍ واحدةٍ من النقاط العديدة التي نكتشفها في كل سورة، منعزلةً عن بقيّة النقاط، قد يجعل من أمرها شيئاً يسيراً في أعيننا لا شأن له في الإعجاز. إنّ الإعجاز الحقيقيّ ليس في تجاوز القرآن للأعراف اللغويّة المعهودة مرّةً أو مرّتين في السورة، أو حتى في الآية، فهذه "التجاوزات" لا تكتسب صفتها الإعجازية إلاّ من كثافتها

وتلاحقها وتداخلها بعضها في بعض، بحيث لا تجد سورةً في القرآن إلاّ ويتجاوز فيها عدد هذه النقاط عدد كلمات السورة، كما سبق أن أكّدنا.

وككلّ سورةٍ من سور القرآن الكريم؛ تستقلّ (الفاتحة) بخصائص لغويّةٍ تنفرد بها دون غيرها من السوَر. وسنتبيّن أنّها تستقلّ بأربعة مواقع لغويّةٍ لا تشاركها فيها أيّة سورةٍ أخرى، وهي الاستعمال الخاصّ لكلٍّ من اللفظين (غير، ولا)، وكذلك تعدية الفعل (نستعين) بنفسه من غير وجود الباء، ثمّ العلاقة المعنويّة الفريدة بين اللّفظين (مالك) و (يوم)، هذا إلى جانب تفرُّد السّورة، دون غيرها من السوَر، بما لا يقلّ عن ثلاث سبائك من مجموع سبائكها اللغويّة الستّ كما سوف نرى.

أولاً: الألفاظ والمصطلحات

١- الرحمن:

كم مرّةً نردّد ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ كلّ يوم؟ في صلاتنا، في طعامنا، في شرابنا، في أعمالنا ومناسباتنا، ولكنّنا، مع ذلك، نرددها وكأنها ثلاث كلماتٍ لا أربع، فلا نكاد نميّز بين (الرحمن) و(الرحيم). إنهما من جذرٍ واحد، هو الرحمة، فلماذا إذن نجهد أنفسنا ونفكّر بالتمييز بين معنييهما؟!

طبعاً، لم ينَم العلماء عن هذا الأمر فيسلّموا به، كما ذكرنا، وهكذا بحثَ الشوكانيّ -رحمه الله- وهو العالم اليمنيّ المتأخّر (ت١٢٥٠هـ) عن الفروق بين اللفظين عند من سبقه من المفسّرين، فماذا وجد؟ يقول الشوكانيّ عن اللفظين، ملخِّصاً أقوال المفسّرين، إنّهما:

أ- اسمان مشتقّان من الرحمة على طريق المبالغة، ورحمن أشدّ مبالغةً من الرحيم، وقد تقرّر أنّ زيادة البناء تدلّ على زيادة المعنى

ب- قال أبو علي الفارسيّ: الرحمن اسمٌ عامٌّ في جميع أنواع الرحمة يختصّ به الله تعالى، والرحيم إنما هو في جهة المؤمنين[1].

(١) الشوكاني، **فتح القدير الجامع بين فنَّي الرواية والدراية من علم التفسير**، مرجع سابق، ج١، ص٨١.

والحقّ أنّ الشوكاني قد اختصر بهذه الأسطر القليلة آراء مَن قبلَه من المفسّرين، فكلّهم يدور حول هذا المعنى، وكلّهم مجتهد، ولم يجدوا بين أيديهم نصّاً قرآنياً ولا نبويّاً يؤيّد آراءهم، أو ينفيها، وفكرة أنّ "زيادة البناء –أي زيادة عدد حروف الكلمة– تدلّ على زيادة المعنى" تبدو لنا غير مقنعة، هنا على الأقلّ، أنا شخصيّاً لا أعرف كلمةً أقلّ غضباً من (غضبان) –ذات الحروف الخمسة– ولا أكاد أفرّق بينها وبين (غاضب) أو (مُغضَب) الرباعيّتين، بل إنّ صيغة (غَضِبٌ) تقلّ عنها بحرفين ومع ذلك فهي إحدى صيغ مبالغات اسم الفاعل، وهي صيغٌ، باعتراف النحويّين أيضاً، أكثر مبالغةً من الصيغ الثلاث التي ذكرتُها. بل تجاوز بعضهم ذلك إلى ما ينقض تماماً نظريّة "زيادة البناء" فيقول السيوطي:

"ذهب ابن الأنباري إلى أنّ (الرحيم) أبلغ من (الرحمن)، ورجّحه –أيضاً– ابن عساكر بتقديم –أي بسبب تقديم– (الرحمن) عليه، وبأنّه –أي (الرحيم)– جاء على صيغة الجمع (كعبيد) وهي أبلغ من صيغة التثنية –التي جاء عليها لفظ (الرحمن)–"[1]

فهل نستطيع أن نتناول اللفظين تناولاً علميّاً صَرفيّاً يمكّننا من الخروج بحكم موضوعيٍّ إلى حدٍّ ما لتمييز الفرق بين معنييهما؟ (نذكّر هنا من جديد بأنه لايجرؤ إنسانٌ، ولا ينبغي له، أن يدّعي أنّه خرج بأحكام أو تفسيراتٍ نهائيةٍ فيما يتعلّق بلغة القرآن الكريم، إننا لا نملك أولاً وأخيراً، فيً مثل هذه المواقع، إلاّ تقديراتنا البشريّة القاصرة).

إنّ صيغة (فَعِيل) في العربية تدلّ عادةً على صفةٍ مستمرّةٍ أو مستقرّةٍ على الأقلّ، فالبخيل بخيلٌ دائماً، أو لفترةٍ مستقرّة، وكذلك الكريم والسفيه والحليم والطويل والقصير والكبير والصغير والجميل والقبيح والعريض والرفيع. أمّا صيغة (فَعْلان) مثل: جوعان وعطشان وغضبان، فتدلّ على الصفة الطارئة أو الحاليّة: (الآن)، وهي تزول عادةً خلال وقتٍ قصير. فالجوعان لم يولد وهو جوعان، والغضبان لن يستمرّ غضبه طويلاً، وكذلك العطشان والحيران والسهران والنعسان

(١) السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر. **الإتقان في علوم القرآن**، تحقيق: محمد سالم هاشم، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣م، ج٢، ص٤٨١.

والسكران والبردان، وهي صفاتٌ تتّصف بالحركة والفاعليّة؛ لأنّها تحدث الآن وفي هذه اللحظة التي نردّدها فيها.

فهل في هذه الحقيقة ما يشير إلى ما في لفظ (الرحمن) من حيويّةٍ تتفاعل مع الحاضر، ومن إشعاعٍ مثيرٍ ومحرِّكٍ يوحي بتنزّل الرحمة علينا "الآن"؟

إنّه، إذن، (الرحمن) الذي يمارس عليك رحمته الآن، و(الرحيم) دائماً منذ الأزل وإلى الأبد. معنيان متميّزان تماماً. الأول (الرحمن)، فألِفُ المدّ في وسطه، ونحن نلفظها طبعاً بفمٍ مفتوحٍ عموديّاً على مداه، تذكّرنا ببُعده العموديّ: وهو تنزُّل الرحمة الآنيّ (الآن) عموديّاً، من السماء إلى الأرض، فهي كلمةٌ طازَجةٌ فاعلةٌ حيّةٌ نشعر معها أنّ الرحمة في حالة نشاطٍ وفاعليّةٍ، وأنّها تتحرّك في هذه اللحظة باتّجاهنا وتتنزّل علينا. والآخر (رحيم) فالياء الممتدّة في وسطه، ونحن نفتح فمنا أفقيّاً على مداه حين لفظنا لها، تذكّرنا ببُعده الأفقيّ: امتداد رحمة الله واستمرارها منذ الأزل وإلى الأبد.

لقد عثرت مؤخّراً على رأيٍ للمفسّر الهنديّ الكبير حميد الدين فَراهي (١٨٦٣-١٩٣٠م)، في تفسيره الموسوم (تدبّر القرآن) الذي جمعه ونشره بالأورديّة تلميذُه العلاّمة أمين أحسن إصلاحي (١٩٠٤-١٩٩٧م)، تنبّه فيه إلى وجود "فروقٍ حقيقيّةٍ" بين معنيَي اللفظين، وإن لم يمسك في النهاية بمعنى لفظ (الرحمن) خاصّةً، كما تبيّن لي من الترجمة الإنكليزيّة لتفسير سورة (الفاتحة) التي نشرها محمّد سليم كياني مؤخّراً في لندن؛ إذ لم يتجاوز كثيراً أقوالَ المفسّرين القدماء حين قال: "إنّ دراسة علم الصرف في العربيّة تُرينا أنّ وزن (فعلان) الذي صيغت عليه الصفة (رحمن) يشير إلى معنى الرغبة الشديدة والحماسة المتوقّدة، على حين يشير وزن (فعيل) الذي بنيت عليه الصفة (رحيم) إلى الدوام والاستمراريّة والثبات."[1]

(1) Islahi, Amin Ahsan. Pondering over the Qur'an, Translated by M. S. Kayani, London, Alkitab Publications: 2003, P.34.

وهو تفسيرٌ من ثمانية مجلّدات جديرٌ حقّاً بأن يَنهد له من العلماء من يترجمه إلى العربيّة، وقد حقّق فيه الفراهي رحمه الله إنجازاتٍ فذّةً لإيجاد سلكٍ أو رابطٍ موضوعيٍّ محكم ينتظم سور القرآن الكريم وآياته كما هي في ترتيبها الحالي.

ولا يبتعد تفسير عناية الله سبحاني كثيراً عن دائرة الفراهي حين يقول: "إنّ صيغة (فعلان) تدلّ على معنى الفيضان والغليان في الوصف دون معاني العمق والرسوخ والدوام والاستمرار، بخلاف صيغة (فعيل) فإنّ الأمر فيها على العكس"[١].

ويزيدني اطمئناناً إلى هذه الاستقلاليّة والتميّز الواضح للصفتين، إحداهما عن الأخرى، ما رُوي عن مدّ الرسول عليه السلام لهما في القراءة، وهو مدٌّ لا يمتّ في الحقيقة بصلةٍ إلى قواعد التجويد المعروفة، وإنّما يستند إلى الشخصيّة المعنويّة المستقلّة لكلٍّ من اللفظين، كما تنصّ إحدى روايات البخاريّ:

عن أنسٍ ﷺ أنّه "سُئل كيف كانت قراءةُ رسولِ الله ﷺ، فقال: "كانت مدّاً، ثم قرأ: بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيم، يَمدُّ ببسمِ الله، ويَمدُّ بالرحمن، ويَمدُّ بالرحيم"[٢]

بل يسوق السيوطيّ روايةً أخرجها ابن أشْتة عن عمر بن عبد العزيز ﷺ أنّه أمر بمدّ (الرحمن) حتّى في الكتابة، فيروي أنّه "كتب إلى عمّاله: إذا كتبَ أحدُكم ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فليَمُدَّ (الرحمن)"[٣]

ورغم الجدل الذي يقوم في نفسي حول نظريّة جِدّة لفظ (الرحمن) أو عدم جِدّته؛ فإنّ القرائن على الاتجاه الأوّل، الجِدّة، تبدو أقوى. وفي حديث الحديبية:

---

(١) سبحاني، محمد عناية الله أسد. **البرهان في نظام القرآن**، إسلام آباد: مكتبة الجامعة، ١٩٩٤م، ص٧٣.

(٢) البخاري، محمد بن إسماعيل. **صحيح البخاري**، تحقيق: مصطفى ديب البغا، بيروت: دار ابن كثير واليمامة، ط. ٣، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م، ج٤، ص ١٩٢٥، حديث رقم ٤٧٥٩.

(٣) السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، مرجع سابق، ج٢، ص٣٣٩. والغريب أن هذا النوع من المدّ لا يوافق قواعد المدّ المعروفة في علم التجويد، مثله مثل مدّ الدال في (إيّاك نعبدُ) على قراءةٍ لعليّ بن أبي طالب ﷺ كما سيمرّ بنا قريباً، والأغرب من ذلك أنّني لم أعثر، بين مجموعات الحديث النبويّ الكثيرة التي قرأتها، على أيّة روايةٍ تنقل أنّه قد حدث للرسول ﷺ أو الصحابة الكرام، سواءٌ في الحقبة النبويّة أو في حقبة الخلافة الراشدة، أن نبّهوا أو صحّحوا لأيّ قارئٍ خطأً أو خروجاً عن قواعد التجويد التي بين أيدينا اليوم.

".. أنّ النبيّ ﷺ دعا الكاتبَ فقال: اكتب ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ فقال سهيلُ بن عمرو -ممثّل المشركين-: أمّا (الرحمن) فوالله ما أدري ما هو؟"[1]

وأكّد القرآن الكريم هذه الواقعة خلال سياقٍ آخر في الآية ٦٠ من سورة (الفرقان): ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ﴾.

وهذا يلقي بمزيدٍ من ظلال الشكّ على صحّة تلك الأبيات الجاهليّة القليلة التي ورد فيها هذا اللفظ:

كُلوا الآن مِن رِزقِ الإلهِ وأيسِروا ... فإنّ على الرحمنِ رزقَكمُ غدا

حاتم الطائي (ت٤٦ ق.هـ)

عجِلتمْ علينا حِجّتين عليكـــمُ ... وما يشأِ الرحمنُ يَعقِدْ ويُطلِقِ

سلامة بن جندل (ت٢٣ ق.هـ)

ولكنْ أعبدُ الرحمـــنَ ربّـــي ... ليغفـرَ ذنبيَ الربُّ الغفـورُ

زيد بن عمرو بن نفيل (ت١٧ ق.هـ)

شكوتُ إلى الرحمنِ بُعدَ مَزارِها ... وما حمَّلتْني وانقطـاعَ رجائيا

قيس بن الحِدادية (ت١٠ ق.هـ)

وغنيٌّ عن التعليق وضوحُ الروح الإسلاميّة في الأبيات جميعاً، ألفاظاً وأسلوباً ومعنىً، وهذا يزيدنا شكّاً في صحّة نسبتها جميعاً إلى هؤلاء الشعراء.

ولكنّ الغريب في المسألة أنّ العرب يشتقّون الصفة (فَعْلان) عادةً من الأفعال اللازمة (أي التي لا تحتاج إلى مفعولٍ به) فالوصف (ظمآن) من (ظمِئ الرجل) و (سهران) من (سهِر) و (غضبان) من (غضِب) و (تعبان) من (تعِب) و (فرحان) من (فرِح) وهكذا، وكلّها أفعالٌ لازمةٌ لا تحتاج إلى مفعولٍ به.

---

(١) البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي. **سنن البيهقي الكبرى**، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكة المكرمة: مكتبة دار الباز، (د. ط.)، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م، ج٩، ص٢١٨، حديث رقم ١٨٥٨٧.

ويشارك (فَعْلان) في تلك الخاصّية صيغةُ (فَعِيل) أيضاً –و (فَعيل) من "الصفات المشبّهة باسم الفاعل" لأنّها بمعنى اسم الفاعل وتعمل عمله أحياناً– فهذه الصيغة لا تأتي إلاّ من الفعل اللازم أيضاً، كما يمكن أن نتبيّن في الأمثلة المذكورة آنفاً (بخيل: من بَخُل، وكريم: من كَرُم، وكبير: من كَبُر.. وهكذا).

أمّا (رحمن) فيأتي، خلافاً لهذه القاعدة، من فِعلٍ متعدٍّ (أي يحتاج إلى مفعولٍ به)، فنقول (رحم اللهُ الناسَ). إنه إذن اشتقاقٌ فريدٌ وغيرٌ مألوف، وله استقلاليّته حتى عن نظائره من الصفات التي جاءت على صيغة (فعلان) بغضّ النظر عن ذهاب بعضهم إلى وجود هذا اللفظ في بعض اللغات الساميّة الأخرى ومنها العبريّة.

٢– العالَمين:

كان مفهوم العرب في الجاهلية عن الوجود، شأنهم شأن الأمم الأخرى، لا يتجاوز هذا العالم، بل يقف قاصراً حتى عن إدراك محيط الأرض وأطرافها، ولهذا لم يعرفوا للفظ (العالَم) جمعاً. ونحن لا نعثر على كلمة (العالمين) فيما بين أيدينا من الشعر الجاهلي، وهو مصدرنا الأكثر توثيقاً عن اللغة العربية قبل الإسلام كما سبق أن بيّنّا.

وأقدم لفظٍ يصادفنا في الطريق ونحن نلاحق مسيرة هذه الكلمة عبر خطّ الشعر العربيّ يرِد في بيتين لشاعرين مخضرمين:[١]

سلكتَ سبيلَ العالمينَ فما لَهم ... وراءَ الذي لاقيتَ مَعدىً ولا قصرُ

كعب بن سعد الغنويّ (ت٥ ق.هـ)

إلــهُ العالمِيــنَ وكــلِّ أرضٍ ... وربُّ الراسـياتِ من الجبــالِ

أميّة بن أبي الصلت (ت ٥ ق.هـ)

ويزيدنا اقتناعاً بذلك أن اللفظ، وهو الذي اختفى تماماً من النصوص الجاهليّة التي بين أيدينا، يتكرّر في الشعر العربي بعد ذلك حتى نهاية العصر الأمويّ (في

(١) المخضرمون هم الذين عاصروا فترتيْ الجاهليّة والإسلام.

سنة ١٣٢هـ)؛ أي في فترةٍ لا تتجاوز بكثيرٍ الفترة التي نملك نصوصها من الشعر الجاهليّ، ما لا يقلّ عن ٣١ مرّة، وهو يتردّد كثيراً في الحديث الشريف أيضاً، ولكن خلال سياقٍ قرآنيٍّ على الأغلب، كما في العبارات النبويّة الآتية، وقد أشرنا بجانب كلٍّ منها إلى مصدرها القرآنيّ:

- "على إبراهيمَ في العالمين" [من الآية ٧٩: الصافّات]
- "ما لم يُعطِ أحداً من العالمين" [من الآية ٢٠: المائدة]
- "لا يُعذِّبهُ أحداً من العالمين" [من الآية ١١٥: المائدة]

فإذا خرج عن السياق القرآنيّ لجأ الحديث إلى اللفظ المفرد (عالَم) كقوله ﷺ:

- أربعُ نِسوةٍ سادتْ نساءَ عالمِهنّ: مريمُ بنتُ عمرانَ، وآسيةُ بنتُ مزاحم، وخديجةُ بنتُ خويلدٍ، وفاطمةُ بنتُ محمّدٍ، وأفضلُهنّ عالَماً فاطمةُ[١]

ومن المهمّ أن نلاحظ أن صيغة الجمع هذه لم يعرفها التوراة ولا الإنجيل. ورغم أنّ اللفظ في إحدى النسخ العربيّة للإنجيل[٢] جاء في صيغة الجمع مرّتين[٣] فإنّها انفردت بهذه الترجمة دون بقيّة النسخ العربيّة التي بين أيدينا، ولو عدنا إلى معظم النسخ الإنكليزيّة فسنجده بصيغة المفرد في كلا الموقعين المذكورين *world* أو يحلّ محله لفظ (الكون) *universe* في بعض النسخ، أو لفظ (الأشياء) *things* في نسخٍ أخرى، ولم أجده مجموعاً إلاّ في نسخةٍ واحدة من النسخ التي بين يديّ. أمّا في الترجمات الفرنسيّة فيرد مفرداً أيضاً *le monde* وكذلك في الترجمات الألمانيّة *Welten die*. كلّ هذا يجعلنا نرجّح أنّ النسخة العربيّة التي انفردت بصيغة الجمع قد تأثّرت في هذا باللغة القرآنيّة. ومن المهمّ الإشارة هنا

---

(١) الطبري، أحمد بن عبد الله. **ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى**، القاهرة: مكتبة القدسي، ١٣٥٦هـ، ص٤٤.

(٢) الكتاب المقدس، (د. م)، نسخة دار الكتاب المقدّس في العالم العربيّ، ١٩٨١م.

(٣) الرسالة إلى العبرانيّين: ١: ٢ و ١١: ٣

إلى أنّ التأثير القرآنيّ في ترجمات الكتاب المقدّس إلى العربيّة ظاهرةٌ لها دلالاتها الكثيرة، وهي جديرةٌ بالدراسة المعمّقة والمتخصّصة.

٣- الدِّين:

هذا الاستعمال القرآنيّ الفريد للفظ (الدِّين) فتحٌ آخر من فتوح الثورة التجديديّة في لغة الوحي. فالدّين عند العرب لم يكن يتجاوز ما يؤمن به الإنسان، ولم يأخذ اللفظ في لغتهم قطُّ هذا المفهوم المتطوّر والواسع، ليشمل نظاماً كاملاً في التفكير والاعتقاد يغطّي الدنيا والآخرة.

ولكنّ القرآن، من جانبٍ آخر، يفاجئهم هنا بمعنىً لا علاقة له البتّة بالمعنى التقليديّ عندهم، لقد أصبح اللفظ يحمل معنى حدثٍ كبيرٍ هو أعظم الأحداث وأكثرُها هولاً: يوم الحساب، فيتركنا اللفظ، بطبيعة اشتقاقه وبوحي سياقه الجديد، موزَّعين بين إيحاءات ألفاظٍ عديدةٍ مشتقّةٍ من الجذر نفسه: (الدَّين) الذي نُحاسَب عليه ونقوم بتسديده في النهاية، و (الإدانة) أو (الدينونة) التي تنتظر الإنسان، له أو عليه، في ذلك اليوم العصيب، و (الديّان) الذي يحاكمنا ونخضع لمشيئته وأحكامه التي لا تُردّ.

٤- نعبد:

هل الفعل (نعبد) من العبادة أم من العبودية؟ وبعبارةٍ أوضح: هل نعبد الله حباً وخضوعاً وتسليماً ورهبةً ورغبةً معاً، أم اضطراراً وكراهيّةً وترصّداً لليوم الذي نتخلّص فيه من قيد عبوديّته؟

تبعاً للمفهوم الإسلاميّ الجديد هناك فرقٌ كبيرٌ بين طبيعة العلاقة، كما نعرفها، بين العبد وسيّده، من ناحية، وطبيعة العلاقة كما هي بين الله وعبده، من ناحيةٍ أخرى.

فالعلاقة الأولى ذات جانبٍ واحد، وهي مبنيّةٌ على الخوف والحذر والذلّ والشعور بالمهانة من جانب أحد الطرفين، مع كراهية هذه العلاقة وترقّبِ التمرّد عليها والخلاص منها والانعتاق من قيودها بأيّ ثمن.

أمّا الثانية فيمتزج فيها الخوف مع الحبّ، والرهبة مع الرغبة، والذلّ مع النشوة، والخضوع مع تمنّي المزيد منه، وفيها يُقبِل السيّدُ على عبده محبّاً راحماً غفوراً ودوداً، ويُقْبل العبدُ على سيّده مستسلماً راغباً في الاستسلام، ومطمئنّاً إلى أنه لا ملجأ من سيّده إلاّ إليه، وأنّ رحمته وعدله ونعمته ومكافأته لا حدود لها يمكن أن يتصوّرها بشر.

لقد أخطأوا إذ ترجموا كلمة (عبد) –وكذلك ترجمة جمعِها (عِباد)– القرآنيّتين إلى اللغات الغربيّة بالمفهوم الغربيّ أو العالميّ المعروف للعبوديّة، فتُرجمت (عبد الله) إلى الإنكليزيّة هكذا *the slave of God*، وهذا اللفظ يقابل معنى (العبوديّة) أو (الرقّ) في العربيّة وليس (العبادة)، ممّا يجرّده أمام قرّاء الإنكليزيّة، وكذلك أمام أبناء اللغات الأخرى، من معناه الإسلاميّ الذي يقوم على الرّهبة والرغبة، والخوف والرّجاء، والثواب والعقاب، والرضى والاستمتاع، وجهنّم والجنّة، وكذلك الحبّ المتبادل بين الطرفين في هذا النوع الفريد من العبوديّة.

ويميّز القرآن الكريم بوضوح بين العبادة *worship* والعبودية *slavery*؛ إذ يَرِد اللفظ (عباد) فيه – وليس (عبيد) – (٩٥) مرةً جمعاً للّفظ (عبد) بمعنى (عابد) وليس بمعنى (الرقيق). ولكنّنا نعثر على آيةٍ واحدةٍ استخدمت اللفظ نفسه (عباد) بمعنى (عبيد):

– ﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ ﴾ [النور: ٣٢]

أي (عبيدكم) أو (عباد الله الذين في حوزتكم)، وهذا الاستعمال في الآية؛ ربّما يشير إلى اجتماع معنيي العبوديّة والعبادة وتكاملهما معاً في المصطلح الإسلاميّ (عبد الله)، وكذلك في الفعل (نعبد) ومشتقّاتِه، وإذن لا بدّ من البحث عن لفظٍ إنكليزيٍّ آخر، بل ربّما عن لفظين أو أكثر في هذه اللغة، لأداء المعنى القرآنيّ بشكلٍ كاملٍ وسليم. ومن شأن هذا، ولا شكّ، تصحيح الصورة المشوّهة لدى الغرب عن إلهنا الرحيم، وعن موقف المسلم من ربّه وعلاقته به.

٥- اهدِنا:

لم يعد لفظ الهداية، في سياقه القرآنيّ الجديد، يحمل المعنى الجاهليّ التقليديّ، وهو هداية الطريق والإرشاد إليه، بل أصبح مصطلحاً إسلاميّاً خاصّاً للتعبير عن الإيمان بالله ورسوله واتّباع دينه، ويقابله لفظ الضلال أو الضلالة.

٦- الصراط:

رغم اختلاف اللغويّين في مصدر لفظ (الصراط) أفارسيٌّ هو أو يونانيٌّ أو غير ذلك؛ فإنهم يُجمعون على أنّه لفظٌ قرآنيٌّ جديدٌ على العرب، وهي من الحالات القليلة التي سلّم فيها اللغويّون بالحقيقة ورضوا بالاعتراف، غير المعتاد منهم، بالتجديد اللغويّ في القرآن الكريم.

ويخلو الشعر الجاهليّ تماماً من هذا اللفظ، ولكنّه يتكرّر في القرآن، مع ذلك، ٤٥ مرّة، ويتكرّر في الحديث الشريف عشرات المرّات.

ولكن ما هو أغرب من جِدّته أنّ معناه في القرآن الكريم، في جميع استعمالاته، يختلف تماماً عن معناه في الحديث الشريف.

إنّ معناه القرآنيّ هو الطريق القويم أو الهداية أو الإسلام، أو الطريق عامّةً، كما يتبيّن لنا في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام: ١٦١]
- ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١٦]
- ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ ﴾ [هود: ٥٦]
- ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [المؤمنون: ٧٤]
- ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [يس: ٦٦]

أمّا في الحديث الشريف فيختصّ معناه بالطريق الأخرويّ الشاقّ الذي سيجعل الله تعالى كلّ البشر يمرّون مِن فوقه يوم الحساب؛ ليتقرّر مصيرهم هناك: في الجنّة أو في النار..

ويندر أن نجد اللفظ في الحديث الشريف بالمعنى القرآني، ويقع هذا غالباً، إن وقع مطلقاً، في سياق الكلام عن آيةٍ ذُكر فيها اللفظ، أو في ثنايا دعاءٍ يتوجّه مضمونه نحو الهداية إلى الصراط المستقيم الذي نصّت عليه سورة (الفاتحة).

وفي الأحاديث التالية ما يوضّح معنى اللفظ واستخدامَه في اللغة النبويّة:

- "إنّ هذا الصراط مُحتَضَرٌ تَحضُره الشياطينُ، ينادُون: يا عبدَ الله هذا الطريق، فاعتصِموا بحبل الله فإنّ حبلَ الله هو القرآن"(١)
- "عن عائشة رضي الله عنها قالت: سألتُ رسولَ الله ﷺ عن قوله عزّ وجلّ ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ فأين يكونُ الناسُ يومَئذٍ يا رسولَ الله؟ فقال: على الصراط"(٢)
- ".. فيأتيهمُ اللهُ فيقول: أنا ربُّكم، فيقولون: أنتَ ربُّنا، فيدعوهم، فيُضرَبُ الصراطُ بين ظَهرانَيْ جهنّم، فأكونُ أوَّل مَن يَجُوزُ مِن الرُسُلِ بأمّتِه.."(٣)

إنه إذن، ليس مجرّد لفظٍ جديدٍ يضاف إلى قاموسنا اللغويّ، وإنما هو أيضاً مصطلحٌ جديدٌ سيضاف إلى قاموسنا الدينيّ عن الاستقامة والهداية والإيمان، وصورةٌ جديدةٌ تغني خيالنا الأدبيّ عن جزئيّةٍ فريدةٍ من حياةٍ أخرى تنتظرنا بعد الموت لا نعرف عن مفرداتها وتفاصيل أوصافها إلاّ القليل ممّا جاء عنها في القرآن أو الحديث.

---

(١) الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن. **سنن الدارمي**، تحقيق: فواز زمرلي وخالد العلمي، بيروت: دار الكتاب العربي، ط. ١، ١٤٠٧هـ، ج٢، ص٥٢٤، حديث رقم ٣٣١٧.

(٢) القشيري، مسلم بن الحجاج. **صحيح مسلم**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د. ط.)، (د. ت.)، ج٤، ص٢١٥٠، حديث رقم ٢٧٩١.

(٣) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج١، ص ٢٧٧، حديث رقم ٧٧٣.

٧- الذين أنعمت عليهم:

هذا التعبير أضحى، منذ تنزّله، مصطلحاً يعني: المؤمنين، بمختلف أشكالهم، مقابل التعبيرين التاليين له، ويشيران إلى غير المؤمنين بمختلف فصائلهم.

٨- غيرِ:

لعلّ استعمال هذا اللفظ، ثم اللفظ (ولا) من بعده، أغرب ما في هذه السورة، والأشدّ إثارةً والأكثر خروجاً عن المألوف.

عندما تسأل إنساناً عن أمرٍ فيحدّثك عن غيره تقول له:

سألتك عن ذلك الأمر لا عن هذا الأمر، أو:

وليس عن هذا الأمر.

ولكنك لن تقول أبداً:

سألتك عن ذلك الأمر غيرِ هذا الأمر.

أي إننا اعتدنا أن ننفي، بعد الإثبات، بأداة النفي (لا) أو أداة النفي الأخرى المشفوعة بالواو (وليس)، ولكنّ الآية، خلافاً لكلّ الأعراف اللغوية المتَّبعة في لغتنا، ماضياً وحاضراً، والمتَّبعةِ كذلك في لغة الحديث النبويّ، بل المتّبعة في القرآن الكريم نفسه -خارج هذه السورة- تَستخدم (غير) بدلاً من أداتَي النفي المعتادتين (لا، وليس). إنّها لغةٌ خاصّة انفردت بها الفاتحة وحدها دون سائر سوَر القرآن الكريم.

٩- ١٠- المغضوبِ عليهم، الضالّين:

وهما التعبيران الثاني والثالث في السورة بين التعبيرات التي تشمل أصحاب الديانات السماويّة الثلاث، وهم يتوزّعون في ثلاثة أصناف: من وقفوا مع أنبيائهم وآمنوا برسالاتهم جميعاً، أو الّذين حاربوهم وقتلوهم فغضب الله عليهم، أو الّذين اتّبعوهم، ولكن ضلّوا عن طريقهم.

١١- ولا:

مرّةً أخرى نحن نتعامل مع الأعراف اللغويّة. إنّ هذه الأعراف تقضي بعطف (لا) على (لا)، وعطف (غير) على (غير) حين نؤكّد النفي، ولا يقع أيّ تبادلٍ بين هاتين الأداتين مطلقاً، إلاّ في القرآن، وفي هذه السورة وحدها دون بقيّة السور.[١] نحن نقول:

لا نريد هذا ولا هذا، أو:

نريد غير هذا وغير هذا

ولا نقول:

نريد غير هذا ولا هذا

لقد عُطفت (لا) في الآية على (غير)، خلافاً لما اعتدناه في تعاملنا مع هذه الأداة، بل خلافاً لاستعمالاتها في أيّ موقعٍ آخر من القرآن الكريم، ومن الحديث الشريف أيضاً، حيث تعطف (لا) باستمرارٍ على (لا) أخرى تسبقها، كما في قوله تعالى:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ﴾ [المائدة: ٢]

- ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ٣١﴾ [القيامة: ٣١]

- ﴿لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ ٧﴾ [الغاشية: ٧]

ومن المهمّ هنا التفريق بين (غير) التي تنفي بعد إثباتٍ -وهي ما يَعنينا هنا- و (غير) المنصوبة على الحاليّة، والتي لا تنفي أمراً بعد إثباتِ غيره، وإنما تأتي حالاً منفيّةً يتبعها نفيٌ آخر، بـ (لا) أو بغيرها، كقوله تعالى:

---

(١) نستأنس هنا بقراءة أحد كبار القرّاء وهو أُبيّ بن كعب للآية هكذا: (وغير الضالّين)، وكأنّي به يفسّر الآية فيقرأها بلغتنا العاديّة، انظر:
- شاهين، عبد الصبور. **تاريخ القرآن**، القاهرة: دار القلم، ١٩٦٦م، ص١٥٣.

- ﴿ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ ﴾ [البقرة: ١٧٣]

- ﴿ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖۚ ﴾ [النساء: ٢٥]

فعُطفت (لا) هنا على (غير) وهذا لا يخالف العرف اللغويّ لأنّ (غير) أتت حاليّةً، ولم تنفِ أمراً بعد إثبات غيره. ومِثلُ (غيرَ) الحاليّةِ هذه كثيرٌ في القرآن الكريم.

ثانياً: الصيغ والعلاقات اللغويّة

١- بسم الله:

لم يُلغِ الإسلام التسمية الجاهليّة المعروفة (باسمك اللهمّ) فقد كرّسها الحديث الشَريف في بعض الأدعية النبويّة، وكلّنا يردّد قبيل نومه الدعاء النبويّ المأثور: "باسمك اللهمّ أموت وأحيا". ولكنّ الصيغة الجديدة (**بسم الله**) تتخلّى عن أسلوب النداء الموجود في التسمية الجاهليّة، فتقلبها من صيغة المخاطَب التي يقتضيها النداء (باسمكَ "أنتَ" اللهمّ) إلى صيغة الحياد/الغائب (باسمـ"ـهِ هو" الله).

وهكذا يرتبط شبهُ الجملة (بسم) لأوّل مرّةٍ بلفظ الجلالة مباشرةً، وليس بالضمير العائد عليه (باسمك)، وهذا ما لم يعرفه التراث الجاهليّ، شعره أو نثره، من قبل.

٢- الحمد لله (الابتداء بالحمد وتعدّيه إلى لفظ الجلالة باللام):

لم يستعمل العرب، فيما وصل إلينا من تراثهم قبل الإسلام، لفظ (الحمد) هكذا معرّفاً بـ (الـ) مع الابتداء به، ومع مجيء خبره شبهَ جملةٍ مجروراً باللام (لله)، كما حدث في هذه السورة، إلاّ في بيتٍ واحدٍ من بحر الرَجَز يُنسب إلى قُسّ بن ساعدة الإياديّ، خطيب الجاهليّة الذي حُمِلَ عليه من المنحول ما لم يُحمل على كثيرٍ من الجاهليّين غيره، ولا نملك إلاّ أن نشكّك بصحّة نسبة البيت إليه لوضوح الطابع القرآنيّ فيه، كما يمكن أن يتبيّن لأيّ قارئٍ عاديّ:

الحمـــــدُ لله الـــــذي   لـم يَخلُـقِ الخَلْـقَ عبَـثْ

وكلّ ما يرِدُنا، خلافَ ذلك، من حالات هذا اللفظ فاسمٌ مجرّدٌ مستقلٌّ بنفسه، غيرُ مرتبطٍ بشخصيّةٍ، عاقلةٍ أو غير عاقلة. ولْنلاحظ كيف تَجَرّد اللفظ (الحمد) في الأمثلة الجاهليّة التالية من الاستناد أو الإضافة إلى أيّ لفظٍ يمكن أن يعود الحمدُ إليه:

والمعطيان ابتغاءَ الحمدِ مالَهما ... والحمدُ لا يُشترَى إلاّ بأثمانِ

ابن المضلَّل (ت ؟ ق.ه)

لكنّما عِوَلي إن كنتُ ذا عِوَلٍ ... على بصيرٍ بكسبِ الحمدِ سبّاقِ

تأبّط شرًّا (ت ٨٥ ق.ه)

تَلُومانِ لمّا غَوّرَ النجمُ ضِلّةً ... فتىً لا يرى الإتلافَ في الحمدِ مَغرَماً

حاتم الطائيّ (ت ٤٦ ق.ه)

وبالعدل فانطِقْ إنْ نطقتَ ولا تَجُرْ ... وذا الذمّ فاذمُمهُ وذا الحمدِ فاحمَدِ

عديّ بن زيد (ت ٣٦ ق.ه)

وتتأكّد لنا قرآنيّة اللفظ لو علمنا أنه ورد في القرآن الكريم ٤٣ مرةً؛ ارتبط في ٣٨ منها هكذا (بال) ومستنداً إلى لفظ الجلالة ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ ، وتجرّد في خمسٍ منها فقط من (ال) ولكنّه أضيف مع ذلك، في الحالات الخمس، إلى ضميرٍ عائدٍ على ذاته تعالى (بحمدك – بحمده).

وقد يساعدنا على تفهّم قيمة هذه الجِدّة اللغويّة وتصوّر المفاجأة والتساؤل اللذَين أثارهما هذا التركيب لدى العرب الأوائل ما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عبّاس رضي الله عنه أنّه قال:

– "قال عمر رضي الله عنه: قد علمنا (سبحان الله) و (لا إله إلاّ الله) فما (الحمد لله)؟ فقال عليّ رضي الله عنه: كلمةٌ رضيَها لنفسه."[1]

(١) الرازي، عبد الرحمن بن محمد. **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكة المكرمة: مركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار الباز، ط. ١، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م، ج١، ص٢٧، فقرة رقم ١٣.

٣- الحمدُ لله (طلبٌ من غير فعلِ طلب):

يقول ابن جرير: "الحمد: ثناءٌ أثنى به على نفسه، وفي ضمنه أَمَرَ عباده أن يُثنوا عليه، فكأنّه قال: قولوا الحمدُ الله."[١]

من الواضح أنّ الله تعالى أراد أن يضع عبارة الحمدِ هذه على ألسنتنا ولكن من غير أن يرِد قبلها صراحةً، تبعاً لتوقّعاتنا البشريّة، فعلُ الطلب أو الأمر، وهو فعلٌ نستطيع أن نقدّره بأنفسنا كما ذهب ابن جرير. هذا النوع من الحذف، أو من الطلب، أسلوبٌ قرآنيٌّ فريدٌ لم يعرفه العرب قبل القرآن، ولا نعرفه في أيّ أسلوبٍ بشريٍّ آخر حتّى الآن.

٤- الحمدُ لله (تعبيرٌ جديد):

بغضّ النظر عن خصيصة (الطلب) التي تحدّثنا عنها أعلاه في هذا الأسلوب، فإنّه تعبيرٌ جديدٌ أضافه القرآن الكريم إلى معجمنا اللغويّ، ولم يكن معروفاً عند العرب قبل القرآن، ولكنّه يتكرّر فيه مع ذلك ٢٣ مرّة.

٥- ربّ العالمين:

يرِد هذا التعبير ٤٢ مرّةً في القرآن الكريم، وهو إضافةٌ جديدةٌ إلى معجم التعبيرات العربيّة لم يعرفها العرب قبل القرآن.

٦ - ٧ -٨ - الرحمن/ مالك/ الصراط:

كانت (الجملة) في النثر، و(البيت) في الشعر، هما الوحدة اللغويّة الصغرى التي يتعامل بها العرب في تعبيرهم، شأنها شأن (الغْرام) الوحدة الصغرى التي نتعامل بها اليوم في أوزاننا.

---

(١) القرطبي، محمد بن أحمد. **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، القاهرة: دار الكتب المصرية، ط. ٢، ١٣٨٤هـ، ١٩٦٤م، ج١، ص١٣٦.

وجاء القرآن الكريم ليتجاوز هذه الحدود ويَخرج عن الشكل التقليديّ للوحدة اللغويّة، فيجعل من "الآية" وحدةً جديدةً مختلفة البناء تحلّ محلّ الوحدة التقليديّة القديمة.

هل تتذكّرون أيّة جملةٍ أو عبارةٍ أو وحدةٍ لغويّةٍ عربيّةٍ تبدأ بصفةٍ أو بدل؟

إنّ عجائب الحاسوب والموسوعات الضوئيّة المتوفّرة حتى الآن لن تساعدنا للأسف في الإجابة عن هذا السؤال، ولكن ما نحن متأكّدون منه أنّ ذلك لا يتكرّر في لغتنا، بحيث يشكّل ظاهرةً، إلاّ في القرآن الكريم.

ولا يُستثنى من ذلك الحديثُ الشريف الذي يخلو أيضاً من وجود هذه الظاهرة اللغويّة الفريدة.

وتتكرّر هذه الظاهرة في الفاتحة وحدها ثلاث مرّات، فتبدأ بصفةٍ أو ببدلٍ كلٌّ من الآيات: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ و ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ و ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾، فالألفاظ (الرحمن – مالك – صراط) صفةٌ أو بدلٌ لألفاظٍ سبقتها. ولو حدث أن اتّصلت هذه الآيات الثلاث كلٌّ بما قبلها لتتوحّد في جملةٍ واحدة، بحيث لا تنفرد كلٌّ منها لتكون وحدةً لغويّةً مستقلّة، أي (آية)، لسقطت قضيّتنا هنا، فلا يكون لنا منها أيّ شاهدٍ يدخل في موضوعنا الإعجازيّ.

لنلاحظْ مثلاً أنّنا لم نتوقّف قبل قوله تعالى ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ رغم أنها عبارةٌ تبدأ، كالآيات الثلاث، بصفةٍ أو بدلٍ أيضاً، فاللفظ (غيرِ) هنا صفةٌ مجرورةٌ أو بدلٌ من الاسم الموصول (الذين) قبله، وإذن كان يمكن للعبارة التي سبقتها ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ أن تستقلّ وحدها في آيةٍ لتبدأ بعدها الآية التالية ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، ولكنّ القرآن جمع بينهما هنا في آيةٍ واحدةٍ على عكس ما حدث في الآيات الأخرى.

إنّنا في القرآن أمام مفهوم جديدٍ كلّياً لـ (الوحدة اللغويّة) التي كانت تقتصر في اللغة العربيّة، عشيّة نزول القرآن الكريم، على (الجملة) في النثر و(البيت) في الشعر.

٩- الرحمن الرحيم:

تعبيرٌ جديدٌ لم يعرفه العرب قبل القرآن الكريم، ويتكرّر في الفاتحة مرّتين وفي بقيّة السور ٤ مرّات (لا بدّ من التأكيد هنا على أنّ البسملة هي إحدى آيات الفاتحة السبع، خلافاً لوضعها مع السوَر الأخرى).

١٠- مالكِ يوم:

غرابة هذا التركيب لا تقتصر على اللغة العربيّة، فهو غريبٌ في كلّ لغة، ولا سيّما حين نعرف أنّه ينتمي لحقبة تعود إلى ما قبل أربعة عشر قرناً، حين لم يكن هناك رمزيّةٌ ولا سرياليّةٌ في الأدب أو الشعر.

لقد اعتدنا، كما اعتادت كلّ لغة، أن يضاف الامتلاك إلى أمرٍ محسوسٍ، فهناك:

مالكُ المال،

ومالك الأرض،

ومالك المخزن،

ومالك البناء،

ومالك المصنع،

وكلّ هذه الممتلكات أمورٌ محسوسةٌ تُمسَك باليد، ولكنّنا لم نسمع من يقول: مالك الدقيقة أو الساعة أو اليوم أو الشهر، وهل يُملك الزمن أو يُمسَك؟! وهل سمعتَ عن شخصٍ جاء إلى المصرف ليوْدِع في حسابه شهراً أو عشرين يوماً؟!

ولا شكّ أن العربيّ الأوّل قد هزّته هذه العلاقة الغريبة الجديدة بين المُلك والزمن، فكيف بك إذا جاءت هذه العلاقة في سياق علاقاتٍ جديدةٍ أخرى تُجاورها ولا تقلّ عنها غرابةً وسحراً، كهذه العلاقة التالية:

١١- يوم الدِّين:

حالاً، بعد أن تتجاوز أذنُ العربيّ الأوّل هذه "الأزمة الفكريّة" التي واجهتها في مطلع الآية حيث أُسنِد المُلْكُ إلى الزّمن، تجد نفسها قبالة أزمةٍ أخرى: كيف يضاف (اليوم) -وهو زمنٌ- إلى غير الحدث (الدِّين)؟!

لقد اعتادت اللغات البشريّة جميعاً ألاّ يأتي الزمن فيها إلاّ مرتبطاً بحدثٍ يَحدث فيه ويضاف إليه، فنقول:

يوم المعركة، يوم السفر، يوم الامتحان، يوم السباق، يوم الافتتاح؛ فالمعركة والسفر والامتحان والسباق وحفل الافتتاح كلّها أحداثٌ يستوعبها زمنٌ تقع فيه، أمّا ﴿ٱلدِّينِ﴾ فهو عند العربيّ، حتّى ذلك الوقت، اسمٌ مجرّدٌ من أيّ معنىً للحدث!

وسيسأل العربيّ نفسه ألف مرةٍ عن هذا الربط اللغويّ الغريب بين الزمن والمعنى المجرّد من أيّ حدث؛ قبل أن تستقرّ الآية في شعوره الداخليّ وتعتادَها ملَكته اللغويّة.

طبعاً، سيكتشف العربيّ فيما بعد أنّ هذا التعبير، بالاصطلاح الجديد الذي شَحن به القرآن لفظ (الدّين)، سيحمل من الآن فصاعداً معنى حدثٍ كبيرٍ جداً، وهو يوم الحساب.

١٢- مالكِ يومِ الدين:

وهذه آيةٌ أخرى تستقلّ كاملةً بصفةٍ واحدةٍ -وليس صفتين هذه المرّة- هي اللفظ (مالك) ومعه توابعُه التي تُعدّ جزءاً منه ولا يكتمل إلاّ بها، وهي المضافان (يوم) و(الدين).

إنّ ظاهرة استقلال الصفة بآيةٍ، أو بوحدةٍ لغويّةٍ كاملة، أمرٌ لم يعهده النحو العربيّ من قبل، ولن يعرفه مِن بَعد.

١٣- مالك يومِ الدين:

تعبيرٌ جديدٌ خاصٌّ بالقرآن الكريم، بل هو خاصٌّ بسورة (الفاتحة) فلا يتكرّر في القرآن أبداً.

١٤- مالكِ يومِ الدين. إيَّاك نعبدُ:

تحدّث البلاغيّون، كما فصّلنا في الجزء الأوّل، عن ظاهرة (الالتفات)، فلم يفرّقوا بين الآيات والأشعار الجاهليّة حين أتوا بشواهدهم عن هذا الفنّ البلاغيّ الذي أدخله القرآن إلى قاموسنا الأدبيّ، وإن ظلّ في الحقيقة، حتّى اليوم، بعيداً عن متناول أدبائنا وشعرائنا، بل عن متناول أيّة لغةٍ أخرى أعرفها، ومقتصراً، بشكله الفنيّ المتطوّر، على لغة الكتاب الكريم وحده.

ويتجسّد لنا هذا الأسلوب واضحاً في الفاتحة حين التفتت الآيات فجأةً إلى صيغة المخاطَب ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ متحوِّلة عن الخطاب الحياديّ/ الغائب، والخالي تماماً من الضمائر ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾.

إنّها صيغةٌ فريدةٌ وساحرة، رغم أنّ روح ضمير جماعة المتكلّمين (نحن) الموجّه إلى المفرد الغائب (أي إلى الله تعالى) يظلّ مهيمناً عليها، حتى إن لم يظهر هذا الضمير بجسده في الآيات الأربع الأولى من السورة، إذ لا أثر في هذه الآيات لأيٍّ من ضمير المتكلّمين (نحن نحمدك) أو ضمير المخاطب (أنتَ الرحمن)، إلى أن تأتي الآية الخامسة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حيث يتوالى فيها فجأةً الضميران معاً (الضمير الظاهر: إيَّاك، والضمير المستتر: نحن).

إنّها صلاةٌ مجرّدةٌ من الضمائر يلقيها الله تعالى على ألسنة المؤمنين ليتوجّهوا بها إليه. وهذه الصيغة الحياديّة، التي تسمو في حياديّتها، إلى حدّ

التجرّد من الضمائر تماماً، رغم مؤدّاها الخطابيّ (نحن نخاطبك أو نتوجّه إليك)، أسلوبٌ لغويٌّ صعبٌ ونادر، وأكاد لا أعرفه إلاّ في نصوص التسبيح والتمجيد والتبتّل إلى الله.

١٥- ١٦- إيّاك نعبد / اهدنا الصراط:

من الواضح أنّ قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ كلّه، في قياساتنا البشريّة، جملةٌ واحدة -رغم توزّعِه على ثلاث آياتٍ- لأنه، من الناحية الإعرابيّة، جملةٌ مؤلّفةٌ من مبتدأ (الحمد) وخبره المقدَّر (كائنٌ لله)، وما تبقّى فألفاظٌ ملحقاتٌ بهذا الخبر، بين صفةٍ أو بدلٍ أو مضاف، إلى أن تبدأ الآية التالية لهذه الجملة الطويلة، والتي تخلو من أيّ رابطٍ لغويٍّ يربطها بما قبلها ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ثمّ تلي هذه آيةٌ أخرى هي أيضاً جملةٌ جديدةٌ لا يربطها بما قبلها رابطٌ لغويّ ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾.

ولو تبصّرنا هذه الحقائق اللغويّة، ثم حاولنا أن نعبّر عن المعاني نفسها بلغتنا البشرية العاديّة، فماذا يمكن أن نقول؟ ستكون عباراتنا شيئاً من هذا القبيل:

نشكرك يا من تمنّ بالرحمة على عبادك، (و) نعبدك وحدك، (و)لا نطلب العون من غيرك، (ف)سدّد خطانا على طريقك، أو:

نحن ممتنّون لك أيها الإله الرحيم، (و) لن نعبد غيرك، (و) لن نعتمد على أحدٍ سواك، (ف)اهدنا إلى الطريق القويم، أو:

لك الشكر يا أرحم الراحمين، (ف)أنت وحدك من نتخذه معبوداً،(و) نفوّض أمرنا إليه، (ف)امنحنا الهداية والرشد

هل لاحظنا هنا أننا لم نتخلّ في عباراتنا الثلاث عن أحد حرفي العطف (الواو) أو (الفاء) للربط بين الجمل الأربع: جملة الشكر، وجملة التوحيد والتفرّد بالعبادة، وجملة الاستعانة والتوكّل والتفويض، ثمّ جملة الدعاء بالهداية إلى طريق الإيمان والصلاح؟ إنّ هذا شأن كلّ متكلّمٍ بالعربية الأرضيّة (بمقابل السماويّة).

قد يحدث أن يُهمِل أحدنا حرف العطف هنا أو هناك، ولكن ذلك لن يشكّل عنده ظاهرةً اسمها (التخلّي عن الروابط التقليدية) كما اتسمت به اللغة القرآنيّة في عديدٍ من السوَر والمواقع، فظلّت الآيتان الخامسة والسادسة في هذه السورة من غير رابطٍ لغويٍّ يربط كلاًّ منهما بالآية التي سبقت.

وربّما وجدنا آثاراً نادرةً لهذه الظاهرة القرآنية، في بعض أسجاع الكهّان التي يتناقلها مؤرّخو الأدب العربيّ، إن صحّت، كما في القول الذي يُنسب إلى قُسّ بن ساعدة الإياديّ وورد في بعض الأحاديث الضعيفة أو الموضوعة في رواياتٍ مختلفة:

- أيها الناس، اجتمعوا واستمعوا وعُوا: من عاش مات، ومن مات فات، وكلّ ما هو آتٍ آت، إنّ في السماء لخبراً، وإنّ في الأرض لعِبَرًا، مهادٌ موضوع، وسقفٌ مرفوع، ونجومٌ تمور، وبحارٌ لا تغور، أقسمَ قُسٌّ قسَماً حقًّا: لئن كان في الأمر رضىً، ليكوننّ سخط، إنّ لله تعالى لديناً هو أحبّ إليه من دينكم الذي أنتم عليه، مالي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون، أرَضُوا فأقاموا، أم تُركوا فناموا..[1]

ولكنّ الأمر في القرآن الكريم لا يتوقّف عند جملةٍ هنا أو جملةٍ هناك، وإنّما يتحوّل إلى ظاهرةٍ تكاد لا تخلو منها سورةٌ، بل إنّ هذه الظاهرة، على عكس ما نجده في سجع الكهنة، كثيراً ما تجزّئ الآية الواحدة إلى عدّة جملٍ لا يربط بينها رابطٌ لغويّ، كما في الآيات التالية:

- ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ / كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡ / تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ / قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [البقرة: ١١٨]

---

(١) ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي. **الموضوعات**، تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان، بيروت: دار الفكر، ط. ١، ١٣٨٦هـ، ١٩٦٦م، ج١، ص٢١٣.

لاحظ كيف توقّف الكلام ثمّ استُؤنف من جديد ثلاث مرّاتٍ في الآية (كذلك قال/ تشابهت قلوبُهم/ قد بيّنّا) من غير وجود رابطٍ لغويٍّ يربط الجمل الأربع فيما بينها.

١٧ – إيّاك نعبد:

تعبيرٌ قرآنيٌّ جديدٌ، بل هو خاصٌ بسورة (الفاتحة) فلا يتكرّر في غيرها من السوَر.

١٨ – نستعين:

يتعدّى هذا الفعل إلى مفعوله عادةً بالباء، فنقول (سأستعين بك) و (الاستعانة بالله تعالى). وقد اختصّت السورة بهذه الصيغة للفعل، كما اختصّت بعدم تعديته بالباء، فرغم أنّ صيغةً مختلفةً له تَرِد في ثلاثة مواقع أخرى من القرآن؛ فإنّنا نجده يتعدّى فيها جميعاً بالباء:

- ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ ﴾ [البقرة: ٤٥]
- ﴿ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ ﴾ [البقرة: ١٥٣]
- ﴿ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْۖ ﴾ [الأعراف: ١٢٨]

ولا نجد الفعل في الشعر الجاهليّ إلاّ متعدّياً بالباء، كما في هذه الأبيات:

جمعتَ رُدَينيّاً كأنّ سِنانَهُ ... سَنا لهبٍ لم يَستعِنْ بدخانِ

عُميرة بن جُعل التغلبيّ (ت ٥٦ ق.ه)

غير أنّي قد أستعينُ على الهَـ ... ـــمِّ إذا خفَّ بالثويّ النجاءِ

الحارث بن حِلِّزَة (ت ٤٥ ق.ه)

كأنْ لم يكنْ مِنّا ولم نستعِنْ بهِ ... على نائباتِ الدهرِ إلاّ تذَكُّرا

هُدبة بن الخشرم (ت ٥٠ ق.ه)

إنّها إذن، خصوصيّةٌ أخرى من خصوصيّات القرآن عامّةً، وخصوصيّةٌ أخرى تنفرد بها هذه السورة خاصّةً.

١٩- إياك نعبد وإيّاك نستعين:

على عكس الآيات الأولى من السورة، وقد توزّعت الجملةُ الواحدة فيها على ثلاث آيات، نجد هذه الآية وقد استوعبت جملتين كاملتين مكوّنتين من أربع كلمات. وليس هذا وجهَ الجِدّة فيها، وإنّما هو الاستقلالية التي يتمتّع بها كلٌّ من الجملتين وهما تحت مظلّةِ الآية الواحدة.

إننا نشعر، مع هذه الاستقلاليّة العجيبة لكلٍّ من الجملتين، وكأنّ علينا أن نتوقّف في تلاوتنا عند النصف الأول من الآية ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ قبل أن نتابع إلى النصف الثاني ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لما لكلٍّ من هذين الجزأين من تميُّزٍ في الشخصيّة يجعل منه محوراً قائماً بنفسه، وله مَدارُه الخاصّ والمختلف عن مَدار الآخر.

فنحن في الجزء الأوّل نتوجّه إلى الله بالعبادة والتسبيح، فهو إذن جملةٌ إخباريّةٌ (نحن نعبدك) ليس فيها أيّ طلب، على حين نتوجّه إليه في الثاني بالسؤال وطلب العون، فيتحوّل السياق إلى إنشائيٍّ طلبيٍّ (أعِنّا) معاكسٍ للأسلوب الإخباريّ الذي سبقه، وإن جاء في صيغةٍ نحويّةٍ خبريّةٍ لا تصرّح بالطلب (إيّاك نستعين، تعني: أعنّا).

وربّما يتوضّح لنا هذا التميُّز العجيب بين الجزءين بشكلٍ أكبر لو قرأنا الحديث القدسيّ التالي:

- عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "يقول اللهُ تعالى: قسمتُ الصلاةَ بيني وبين عبدي نصفين، فنصفُها لي ونصفُها لعبدي، ولعبدي ما سأل. إذا قال العبدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قال: حَمِدني عبدي، وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قال: أثنى عليّ عبدي، فإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، قال: مجّدني عبدي، فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦

صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل"[1]

وإذن، فالآية هنا هي التي تتوسّط السورة، ومنتصف الآية هو منتصف السورة، حيث ينتهي موقفٌ تسبيحيٌّ تعظيميّ لله ويبدأ موقفٌ دعائيٌّ توسّليٌّ طلبيٌّ مختلف. ويصل اللقاء الخطابيّ بين المتكلّمين (البشر) والمخاطَب (الله تعالى) ذروتَه القصوى في كلمةٍ واحدةٍ اجتمع فيها ضمير المتكلمين (نحن) وضمير المخاطَب (أنتَ) وهي الكلمة التالية مباشرةً لهذه الآية (اهدِنا).

وربما كان في إحدى القراءات الشاذّة التي تجعل من الفاتحة ثماني آياتٍ ما يساعدنا على إيضاح ما نقول، إذ تقسم تلك القراءةُ الآيةَ إلى آيتين لتكرّس هذا التمايز بين طبيعة الجزءين ضمن الآية الواحدة. كما أنّ لعليّ بن أبي طالبٍ ﷺ قراءةً للفظ (نعبدُ) تصبّ في هذا الاتجاه، وهذه القراءة هي "بإشباع الدال حتّى تتولّد منه واوٌ" كما يورد ابن خالويه في (مختصر البديع) والكرماني في (شواذّ القراءة واختلاف المصاحف).[2]

إنّ مدّ الكلمة في العربيّة من شأنه أن يمنحها شخصيّةً واستقلاليّةً تجعلانها تتميّز عمّا قبلها أو بعدها من الكلمات. ومدّ الدال في (نعبد) يوازي إلى حدٍّ كبيرٍ التوقّف القصير، والتوقّفُ في نهاية كلمةٍ أو عبارةٍ يعني استقلاليّتها واختلافها وانفصالها المعنويّ النسبيّ عن الكلمة أو العبارة التالية، ولذلك كان معظم آيات القرآن الكريم ينتهي بمدّ، وهذا شأن أكثر القصائد الشعريّة أيضاً.

٢٠- إيّاك نستعين:

تعبيرٌ قرآنيٌّ جديدٌ، وهو خاصٌّ بسورة (الفاتحة) فلا يتكرّر بعد ذلك أبداً.

---

(١) القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج١، ص٢٩٦، حديث رقم ٣٩٥.

(٢) شاهين، **تاريخ القرآن**، مرجع سابق، ص١٧٥.

٢١- اهدِنا الصراط:

يتعدّى الفعل (هَدى) ومشتقّاتُه عادةً إلى المفعول به بأحد حرفَي الجرّ: (اللام) أو (إلى) كما في الآيتين:

- ﴿ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [يونس: ٢٥]
- ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩]

وتعدّي الفعل (اهدِنا) إلى مفعوله بنفسه، من غير الاستعانة بأحد هذين الحرفين -كما حصل في السورة- يُعدّ ظاهرةً خاصّةً بالقرآن الكريم.

والغريب أنّ لغتنا المعاصرة، ولغة تراثنا كلّه، وكذلك لغة الحديث النبوي، لا تكاد تعرف هذا الفعل متعدّياً بنفسه حتّى يومنا هذا، رغم التأثير القرآنيّ المستمرّ على مدى أربعة عشر قرناً، ورغم ترديدنا لهذا الفعل، ضمن هذه السورة، مراتٍ عديدةً كلّ يوم. حتى إن حدث وتعدّى بنفسه في الحديث الشريف، وهذا نادر، فستجد ذلك في روايةٍ موازيةٍ لروايةٍ أخرى للحديث نفسه تعدّى فيها باللام، كهاتين الروايتين من مسند أحمد:

- ربّنا اغفرْ لي وارحمْني واهدِني للطريقِ الأقوَم
- ربِّ اغفرْ وارحمْ واهدِني السبيلَ الأقوَم

وهذا يؤكّد لنا تَميّز الاستعمال القرآنيّ للفعل، مثلما يؤكّد جِدّة المعنى الاصطلاحيّ لهذا الفعل، وهو: اتّباع الطريق المؤدّي إلى الله.

٢٢- اهدِنا الصراط المستقيم:

رغم ورود اللفظ (صراط) ٤٥ مرّةً في القرآن الكريم فإنّ تعبير ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ يقتصر على هذه السورة فلا يتكرّر في غيرها أبداً، وهو تعبيرٌ قرآنيٌّ جديدٌ لم يعرفه العرب قبل الإسلام.

٢٣- أنعمتَ عليهم:

تعبيرٌ جديدٌ على العربيّ، خاصٌّ بالقرآن الكريم، وهو يتكرّر فيه مع مشتقّات هذا الفعل ١٧ مرّة.

٢٤- المغضوبِ عليهم:

هذا نوعٌ آخر من الالتفات، يتحوّل فيه الحديث فجأةً من صيغةٍ لغويّةٍ إلى أخرى مختلفةٍ وغير متوقَّعة. فبعد أن سمعنا الجملة الفعليّة ﴿أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ سنتوقّع أن نسمع بعدها جملةً فعليّةً موازيةً مثل (غضبتَ عليهم)، ولكنّ السورة تُخْرجنا من هذا الخَدَر والاستسلام للعرف اللغويّ، والانسياق مع توقّعات النفس الكسول، فتوقظنا بصيغة اسم المفعول الاسميّة المخالفة لتوقّعاتنا ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾.[1]

٢٥- الضالّين:

وبالطريقة نفسها يفاجئنا هذا اللفظ الآخر. لقد انتهينا أوّلاً من صيغةٍ فعليّةٍ ماضية، وتوقّعنا بعدها صيغةً فعليّةً مماثلة، ففوجئنا، بدلاً من ذلك، بالصيغة الاسميّة. أمّا الآن، وقد بدأنا نستسلم لتوقّعات الصيغة الجديدة التي جاءت في شكل اسم مفعولٍ ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ وتهيّأنا لاستقبال اسم مفعولٍ آخر يُعطف عليه من مثل (الملعونين) أو (المنبوذين)، فنجد أنفسنا أمام صيغةٍ مغايرةٍ وهي الصفة المشبّهة باسم الفاعل (الضالّين) -رغم أنّ الصيغتين كلتيهما جاءتا للوصف- إضافةً إلى أنّ هذه الصفة لم ترتبط بشبه جملةٍ يتعلّق بها كما حدث في الصفتين السابقتين اللتين انتهت كلتاهما بـ (عليهم) فلم يقل مثلاً (الضالّين منهم).

---

(١) تنبّه اللغويّ الكبير ابن جنّي إلى هذا الالتفات ووجد له تسويغاً بلاغيّاً بقوله: "قال ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ فصرّح بالخطاب لمّا ذكر النعمة، ثمّ قال ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ ولم يقل (غير الذين غضبت عليهم) وذلك أنّه موضع تقرّبٍ من الله بذكر نِعَمه، فلمّا صار الكلام إلى ذكر الغضب قال: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ ولم يقل (غير الذين غضبت عليهم) كما قال ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ فأسند النعمة إليه لفظاً، وزَوى عنه لفظَ الغضب تحسُّناً ولطفاً"، انظر:

- ابن جني، أبو الفتح. **المحتَسَب في تبيين وجوه شواذّ القراءات والإيضاح عنها**، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨م، ج١، ص٢٤٠- ٢٤١.

هذه الالتفاتات المتوالية السريعة لم يعرفها العرب قبل القرآن، لا بمثل هذا النضج والعمق والتفرّد والوضوح، ولا بمثل هذه الكثافة والتنوّع.

٢٦- غيرِ/ المغضوبِ عليهم:

هذا التعبير، في شكله الكامل ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، أو في شكله الجزئيّ ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، جديدٌ على العربيّ، وخاصٌّ بالقرآن الكريم وحده، بل هو خاصٌّ بسورة (الفاتحة) فلا يتكرّر بعد ذلك في غيرها من السوَر.

ثالثا – السبائك القرآنيّة:

فصّلنا القول في الجزء الأوّل عن الأشكال والقوالب اللغويّة التقليديّة التي اعتاد الشعراء والخطباء العرب قبل الإسلام أن يبنوا منها نصوصهم النثريّة والشعريّة فلا يكادون يخرجون عنها. وكانت هذه القوالب بمثابة "وحداتٍ قياسيّة" أو "لِبناتٍ" أو "سبائك لغويّة" يصوغون منها، أو على منوالها اللغويّ ومقاييسها النحويّة، وربّما على أوزانها أيضاً، خُطبَهم ورسائلهم، وبشكلٍ أخصّ: أشعارَهم.

وهكذا كانت للقرآن الكريم سبائكه الخاصّة التي استعصى معظمها على التقليد، فظلّت خاصّةً به وحده حتّى الآن. وفي الفاتحة ستٌّ من هذه السبائك القرآنيّة الجديدة، وقبل أن أشرح طبيعة الجديد في هذه السبائك الستّ، من المفيد أن نستحضر في ذواكرنا باستمرار طبيعةَ السبائك اللغويّة الشعريّة التي استشهدنا بها، فنجعلها نُصْبَ أعيننا أثناء الحديث لتَسهل علينا المقارنة، وتتضّح أمامنا الفكرة. وعذراً من القارئ لهذا الإلحاح، فنحن نخوض قضيّةً لغويّةً لم يخُض فيها أحدٌ من قبل، فيما أعلم، ونحتاج فيها إلى شيءٍ من التركيز والفِراسة، وبذلِ ما يمكن من الجهد للاستيعاب والاكتشاف والمقارنة.

١- بسم الله الرحمن الرحيم:

قلنا إنّ الإسلام لم يقضِ على التسمية الجاهليّة المعروفة (باسمكَ اللهمّ) فقد وردت في بعض الأدعية النبويّة، ولكنّ الإسلام وضع صيغةً جديدةً لها هي ﴿بِسْمِ

ٱللَّهِ ﴾، ثم لم يكتف بذلك بل وسّعها بإضافة الوصفين الجديدين لله تعالى لتصبح أربعة ألفاظ: الجارّ والمجرور (بِنـــمِ) ولفظ الجلالة –المضاف إلى ذلك المجرور– والوصفين المتتاليين لاسم الجلالة، والمشتقّين من جذرٍ واحد: الرحمن الرحيم.

إنّها، بهذا التركيب المتميّز، والمواصفات الخاصّة، سبيكةٌ جديدةٌ أوجدها القرآن الكريم. حتى إن بدّلنا بعض الألفاظ فيها، كأن نقول: بسم الله العليّ القدير، أو: بسم الله السميع العليم، فإنّ البناء اللغويّ يظلّ كما هو، مع تأكيدنا، إضافةً إلى ذلك، على أهمّية تميّز هذه السبيكة عن السبيكتين اللتين مثّلنا بهما، أو أيّة سبيكةٍ أخرى توازي سبيكتنا، بوجود صفتين فيها مشتقّتين من مصدرٍ واحدٍ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ممّا يمنحها خصوصيّةً شديدة؛ إذ لا نتوقّع أن يعرف العرب، لا قبل القرآن ولا بعده، سبيكةً من مثل:

بسم الأمير الأكرم الكريم، أو:

بسم الملك المعظّم العظيم، أو:

بسم القائد المقدام القديم.

إنّ الهيكل اللغويّ والنحويّ، بتركيبه الرباعيّ والخاصّ هذا، وبوزنه الإيقاعيّ المتفرّد، يبقى هيكلاً متميّزاً وخاصّاً بالقرآن وحده.

٢– الحمد لله ربّ العالمين:

هذه السبيكة الرباعيّة الأخرى تنضمّ إلى السبائك القرآنيّة المتميّزة، بتركيبتها الجديدة المؤلّفة من مبتدأ (الحمد) وخبره شبه الجملة (أو الجارّ والمجرور: لله) مع صِفةٍ أو بدلٍ (ربّ) ومضافٍ إليه (العالَمين)، ولا وجود لمثل هذه "التركيبة النحويّة" أو السبيكة اللغويّة في التراث الجاهليّ.

إنّنا لن نتوقّع مثلاً أن نعثر هناك على جملةٍ مثل:

الشكر للملك عظيمِ الناس، أو:

العرفان للسيّد كبير الشأن

صحيحٌ أننا لا نملك الدليل القاطع على أنّ أحداً لم يقل في الجاهليّة مثل هذا، ولكنّنا نملك ما يكفي من النماذج الشعريّة، وهي مدخلٌ لنا لمعرفة الروح التي تنتظم لغة الجاهليّين، لندرك أنّ مثل هذه التركيبة لم تكن لِتندرج بين أساليب العرب آنذاك، ثمّ لم تصبح، كما يمكن أن نتبيّن بسهولة، من أساليبهم في أيّ عصرٍ تلا بعد ذلك، ولقد ظلّت كذلك غريبةً ومتفرّدةً إلى يومنا هذا.

٣- إيّاك نعبدُ وإيّاك نستعين:

طبعاً عرف العرب الضمير المنفصل (إيّاك) كما عرفوا تقديمه على الفعل العامل فيه، مثلما وقع هنا في الآية، وليس بعيداً عن ذواكرنا المثل العربي (إيَّاك أعني واسمعي يا جارة). ولكنّ التركيب القرآنيّ الجديد يتوالى في جملتين قصيرتين كلّ منهما في كلمتين ضمن آيةٍ واحدة، وبطريقةٍ متوازيةٍ متوازنة، تبدأ فيها كلّ جملةٍ بالضمير المنفصل نفسه وتنتهي بفعلٍ مختلفٍ يعمل في ذلك الضمير، وهو تركيبٌ قرآنيٌّ واضح الخصوصيّة والتميّز. إنّنا لا نتوقّع مثلاً أن نسمع عربيّاً، لا قبل الإسلام ولا بعده، أن يقول لملكه أو رئيسه:

إيّاك أُحبّ وإيّاك أُخلص، أو:

إيّاك أحترم وإيّاك أفتخر،

ولو اقتربنا بهاتين العبارتين بعض الشيء إلى لغتنا؛ إذن لقلنا على الأقلّ:

إيّاك أحبّ ولك أُخلص، أو:

إيّاك أحترم وبك أفتخر.

٤- اهدِنا الصراطَ المستقيمَ صراطَ الذين:

وهذا تركيبٌ متفرّدٌ آخر، يتألّف من فعلٍ مرتبطٍ بفاعله ومفعولِه الأوّل معاً (اهدِنا)، ويليه مفعولُه الثاني (الصراطَ) ومعه صفةٌ لهذا المفعول (المستقيمَ)، ثم يتكرّر اللفظ نفسُه (صراطَ) -ولكن بوصفه بدلاً هذه المرّة- يليه مضافٌ إليه في صورة اسم موصولٍ (الذين).

إنّ العبارة، بهذا التركيب المتداخل الفريد، والذي لا يخلو أيضاً من عنصر التوازي، وذلك بتكرار لفظ (الصراط) بحيث يأتي ترتيبه الثاني والرابع بين الألفاظ، تُعدّ سبيكةً قرآنيةً متميّزةً أخرى في هذه السورة، لا نعرف لها شبيهاً في التراث اللغويّ للعرب حتّى الآن.

٥- الذين أنعمت عليهم غيرِ المغضوب عليهم:

عرفنا من قبلُ تفرُّد استعمال اللفظ (غير) في هذه السورة، إذ حلّ لأوّل مرةٍ -ولآخر مرّة- محلّ (لا) أو (وليس)، وبدهيٌّ، بوجود هذا الهيكل اللغويّ الفريد، أن تكون السبيكة كلّها متميّزة في تركيبها، ولا سيّما أنه قد وقع لها أيضاً ما وقع من توازٍ في السبيكتين السابقتين، فتكرّر فيها اللفظ (عليهم) مرّتين بشكلٍ متوازنٍ -رغم تغيّر طبيعة اللفظ قبلهما من فعلٍ (أنعمت) إلى اسمٍ (المغضوب)- فكان ترتيبه الثالثَ والسادسَ في السبيكة المؤلّفة من ستّة ألفاظ.

٦- غير المغضوب عليهم ولا الضالّين:

تتمحور ألفاظ هذه السبيكة حول اللفظ (ولا) الذي عرفنا قيمته اللغوية حين حلّ في هذه السورة -أيضاً لأول مرةٍ وآخر مرة- محلّ (غير)، فكوّن بذلك محوراً لغويّاً هامّاً من شأنه أن يكوّن، إلى جانب ما في هذه السبيكة من مفارقةٍ صرفيّةٍ بين اسم المفعول (المغضوب) والصفة المشبّهة (الضالّين) كما أوضحنا، سبيكةً لغويّةً قرآنيّةً متميّزةً تختلف عن أيّة سبيكةٍ لغويّةٍ عرفها العرب.

ومن جديدٍ ، وقبل أن أغادر إلى الجانب التالي من جوانب الإعجاز التجديديّ في هذه السورة، عليّ أن أذكّر بأنّ فصل أيّة نقطةٍ من هذه النقاط الإعجازية الكثيرة عن النقاط الأخرى، والنظر إليها منعزلةً عن رفيقاتها، من شأنه أن يُفقدها قيمتها ويخرجها من رصيد هذا البحث. إنّ قوّة المواقع الإعجازيّة تكمن في كثافتها وتواليها عبر مساحةٍ يفوق فيها عددُ هذه المواقع عددَ ألفاظ السورة التي تحتويها.

رابعاً: اللغة المنفتحة

أوجد القرآن الكريم هذا النوع من الألفاظ والتعبيرات التي لم يعرفها العرب من قبل. فاللغة المنفتحة تقف على الطرف الآخر من اللغة العلميّة ذات البعد الواحد، والتي لا يمكن أن تفسَّر بأكثر من وجهٍ واحد. وبقدر ما تتعدّد أوجه إعراب اللفظة أو الجملة ومعانيهما فإنّهما تقتربان من تخوم "اللغة المنفتحة".

ونستطيع أن نعثر في السورة من أنواع هذه الألفاظ والتعبيرات المنفتحة على المواقع الثمانية التالية:

١- العالَمين:

هذا اللفظ يفتح أمام خيالنا آفاقاً لا حدود لها، إنه لا ينحصر في عوالم معروفةٍ محدّدة، هناك إذن "عوالم" لا "عالمٌ" واحد: فهل هي عوالم البشر وحدهم؟ أم عوالم الإنسان والحيوان والجنّ؟ أم سكّان الأرض والسماء؟ أم عوالم أخرى لا نعرفها؟ أم كلّ ذلك معاً؟[1]

٢- الرحمن:

عرفنا من قبل حَيرة المفسّرين، وحَيرتنا، ونحن نحاول أن نمسك، بأصابعنا البشريّة المحدودة، المعنى غيرَ المحدود لهذا الاسم الجديد من أسماء الله الحسنى، والذي يتجاوز في أبعاده المعنى المجرّد للرحمة الذي عرفه العرب قبل القرآن الكريم.

---

(١) هناك حديثٌ قدسيٌّ قد يلقي ضوءاً أكثر على معنى لفظ (العالمين) لأنّه يشير إلى وجود عوالم كثيرةٍ أخرى في السماء لا يعرف أحدها أيّ شيءٍ عن وجود العوالم الأخرى، وهو ما يرويه الديلميّ عن ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "قال الله عزّ وجلّ: يا جبريل، إنّي خلقتُ ألفَ ألفِ أمّةٍ لا تعلمُ أمّةٌ أنّي خلقتُ سواها، لم أُطلعْ عليها اللوحَ المحفوظَ ولا صريرَ القلم، إنّما أمري لشيءٍ إذا أردتُ أن أقولَ له: كنْ فيكون، ولا تسبقُ الكافُ النونَ"، انظر:
- الديلمي، شيرويه بن شهردار. **فردوس الأخبار بمأثور الخطاب المخرج على كتاب الشهاب**، تحقيق: فواز أحمد الزمرلي ومحمد المعتصم بالله البغدادي، بيروت: دار الكتاب العربي، ط.١، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م، ج٣، ص٢٢٩، حديث رقم ٤٥٢١.

٣- يوم الدين:

من منّا لا ينطلق خياله بعيداً وهو يحاول جاهداً أن يضع تصوّراً، ولو تقريبياً، عن ذلك اليوم العظيم الذي سيشهده كلّ إنسانٍ عاش على هذه الأرض، كيف وقد سمّاه تعالى بهذا الاسم الغريب الذي لا تجد له حدوداً لغويّةً كاملة الوضوح، والذي يزيده طيفيّةً ومرونةً هذا الجمع الفريد بين الزمن (يوم) واللفظ (الدين) الذي لم يعرف له العربيّ قبل القرآن دلالةً على حدثٍ، بل كان معنىً مجرّداً يُطلق على ما يعتقده الإنسان أو يدين به. وبإمكاننا تقدير القيمة الإيحائيّة لهذا التعبير لو قارنّاه بتعبيراتٍ أخرى تقابله أقلّ إيحائيّةً، من مثل: يوم الزلزال، يوم الخسف، يوم الخراب، يوم الحساب..

ورغم كثرة الآيات الكريمة، وتعدّد الأحاديث الشريفة التي تصف أحداث ذلك اليوم العصيب، تبقى تصوّراتنا الإنسانيّة عاجزةً عن الوصول إلى صورةٍ، ولو تقريبيّة، لذلك الحدث الغيبيّ.

٤- إيّاك نستعين:

إنّ حذف (المستعان من أجله) في الآية من شأنه أن يترك الخيارات مفتوحةً أمام الذهن البشريّ. ولو جاءت العبارة كهذه مثلاً: (إيّاك نستعين في مواجهة مصاعبنا) لانحصر طلب الاستعانة في هذا الجانب وحده، ولكنّها تُركت مفتوحةً لأيّ نوعٍ محتملٍ من الاستعانة: ضدّ العدوّ، ضدّ الشيطان، ضدّ النفس الأمّارة بالسوء، ضدّ المرض، ضدّ الألم، ضدّ الفقر، أو ربّما لطلب العون في تجاوز المحن، أو الأزمات، أو الاختبارات، أو الامتحانات، أو العثرات.. إلخ.

وقد سمّى السيوطي هذا النوع من اللغة المنفتحة (إيجاز الحذف) واستشهد بهذه الآية على أنّها نوعٌ من (قصد العموم) من بين الأنواع العديدة لإيجاز الحذف.[1]

---

(١) السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، مرجع سابق،ج٢، ص١١٢.

٥- الصراط المستقيم:

إنّ معنى هذا التعبير القرآنيّ يمكن أن يغطّي أبعاداً متعدّدةً من تفاصيل حياتنا، فهو أكثر من مجرّد (طريق الاستقامة) لأنّه يجمع في كلمتين خلاصة الإسلام والإيمان والتقوى والخلق الإسلاميّ والهداية والالتزام بما أمر الله والانتهاء عمّا نهى عنه.

وهو، إلى جانب ذلك، يمتزج في مخيّلتنا بالصراط الآخر الذي يتردّد ذكره في الحديث الشريف، والذي أُعِدّ لنا يوم الحساب لنعبره ويتقرّر مصيرنا من فوقه: في الجنّة أو في النار.

وهذا الامتزاج العجيب بين المعنى النبويّ والمعنى القرآنيّ في أذهاننا من شأنه أن يضاعف قوّة الشحنة الإيحائيّة للّفظ، ويزيد في أبعاده الاحتماليّة.

٦- أنعمتَ عليهم:

من هم تماماً: المنعَمُ عليهم؟ هل هي فئةٌ محدّدةٌ من المؤمنين؟ هل هم وحدهم أتباع محمّدٍ ﷺ أم هم أيضاً أتباع بقيّة الأنبياء؟ هل هم أولياء الله الصالحون؟ أم الأنبياء أنفسهم؟ أم الملائكة؟ أم كلّهم أجمعون؟ ولِكي ندركَ حقيقة القيمة الإشعاعيّة لهذه العبارة تصوّروا لو حلّ محلّها كلمةٌ مثل: المسلمين، أو: المؤمنين، أو: الأتقياء، أو الورعين، أو غيرها، ثم قارنوا بين هذه البدائل والتعبير القرآنيّ.

٧- ٨- المغضوب عليهم/ الضالّين:

ولو فعلنا مع هذين المصطلحين ما فعلناه مع العبارة السابقة لوجدنا الفروق واضحةً بين التعبير القرآنيّ، المنفتح على عدّة اتّجاهات، وبين أيّ خيارٍ لغويٍّ آخر يمكن أن يحلّ محلّهما.

خامساً: جوامع الكَلِم

إلى جانب السبائك اللغويّة، التي أرجو أن يكون مفهومها قد أصبح واضحاً الآن، سنكتشف، ونحن في سعينا لقراءة الأبعاد الأخرى للغة القرآن، ما يمكن تسميته بالصيغ الاصطلاحيّة أو بالعبارات السائرة، أو، وهو ما فضّلنا أن نختاره له، التعبير النبويّ الخاصّ "جوامع الكلِم"، ونعني بها العبارات أو الوحدات اللغويّة التي استطاعت لغة القرآن الكريم أن تفرضها على ألسنة العرب ولم يكونوا قد عرفوها من قبل، حتى غدا كثيرٌ منها بعد الإسلام جزءاً من لغة حياتهم اليوميّة لا يمكنهم التخلّي عنه، أو هو مرشّحٌ على الأقلّ ليكون كذلك.

وفي الفاتحة ما لا يقلّ عن سبعٍ من جوامع الكلِم هذه، وهي:

١- بسمِ الله:

هل يستطيع العربيّ، بل المسلم عامّةً، أيّاً كانت لغته الأمّ، أن يتصوّر حياته الآن من غير هذه العبارة؟ إنّها وحدها التي يجدها في قاموسه اليوميّ ليردّدها حين يبدأ شيئاً ما، من قولٍ أو فعلٍ أو طعامٍ أو شراب.

٢- بسم الله الرحمن الرحيم:

وهذه التسمية الموسَّعة الأخرى يردّدها العربيّ أو المسلم في مناسباتٍ تختلف غالباً عن تلك التي يردّد فيها التسمية المقتضبة، وذلك حين يبدأ رسالةً، أو كتاباً، أو كلمةً، أو عبادةً، أو حين يخاف من شيءٍ يعتريه، أو يفاجئه مفاجئ، أو يدهمه أمر. وهناك من يطلق هذه العبارة على الجنّ إذا أراد أن يتجنّب ذكر اسمهم على لسانه، وكأنّها تساعده بذلك على تجنّبهم وإبعادهم عنه.

٣- الحمد لله:

جزءٌ آخر من لغتنا اليوميّة نردّده في كثير من المناسبات، حتى من غير أن نعي ذلك في بعض الأحيان، فقد أصبح يملأ فراغاً في اللغة اليوميّة لكلّ عربيّ، مسلماً كان أو غير مسلم:

فإذا سألك أحدٌ عن صحّتك، قلت: الحمد لله،

وإذا سألك عن رزقك، قلت: الحمد لله،

وإذا سمعت خبراً يُطَمئنك، قلت: الحمد لله،

وإذا فرَغت من عملٍ، قلت: الحمد لله،

وإذا عزَّيت نفسك في مكروهٍ أصابك، قلت: الحمد لله،

وإذا هنّأت نفسك لخيرٍ أصابك، أو هنّأت غيرك، قلت: الحمد لله،

وإن شكرت ربّك على كلّ هذا وذاك، قلت: الحمد لله..

٤- ربّ العالمين:

من منّا لا يردّد هذا الوصف للخالق عزّ وجل في حياته اليومية بين حينٍ وآخر بوصفه اسماً آخر له يوحي بالقوّة والإحاطة والتفوّق؟ كم قلنا ونقول:

ربّ العالمين كان له حكمته في هذا الأمر،

و: أراد ربّ العالمين أن يعلّم فلاناً درساً،

و: شاء ربّ العالمين أن تجري الأمور خلافاً لما توقّعناه،

أو: سيتحقّق النصر حين يشاء ربّ العالمين...

وغير هذا كثيرٌ ممّا تقتضيه المناسبات والمواقف اليوميّة التي نجد أنفسنا فيها مدفوعين إلى استخدام هذا الوصف القرآنيّ لله عزّ وجلّ.

٥- الحمد لله ربّ العالمين:

هذه العبارة القرآنيّة متّكأٌ آخر من متّكآت لغتنا اليوميّة، وهي أوسع من عبارة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ السابقة، ولها مواقعها الخاصّة في حياتنا، قد تشاركها بها تلك العبارة أو لا تشاركها.

فهذه تختصّ بالانتهاء الكامل من عملٍ ما: طعام، أو شرابٍ، أو خطبةٍ، أو رسالة، أو عملٍ استغرق منّا زمناً أطول، أو حين يتحقّقُ أمرٌ انتظرناه لوقتٍ طويل. وقد تأتي أحياناً في مطلع بعض هذه الأعمال، كالخطبة والدعاء والرسائل.

لقد غدت هي أيضاً جزءاً لا يتجزّأ من نسيج حياتنا اللغويّة لا غنىً لنا عنه.

٦- الصراط المستقيم:

هذا التعبير دخل في صُلب قاموس لغتنا اليوميّة التي استعارته لتستخدمه استخداماً مجازيّاً في مواقف متنوّعةٍ:

فإذا أوصت الأمّ ولدَها بالتزام الحكمة والتعقّل في حياته، وتجنُّبِ ما يوسوس به الشيطان، نصحته بالتمسّك بالصراط المستقيم،

وإذا اشتكى موظّفٌ من إفراط رئيسه عليه في التدقيق والتمسّك بالتفاصيل قال: إنّه يحاسبني على الصراط المستقيم،

وإذا أعلن أحدُنا توبته وأكّد أنّه سيتجنّب في حياته ما يسبّب المتاعب لنفسه أو للآخرين، قال: سأمشي منذ الآن على الصراط المستقيم؟

٧- السورة بكاملها:

وأخيراً، أيّ مسلمٍ يستطيع أن يتصوّر حياته الآن من غير (فاتحة)؟ لقد غدت هذه السورة تملأ علينا مناسباتنا المختلفة: الاجتماعيّة: من أفراحٍ وأتراحٍ ومناسباتٍ متنوّعة، والاقتصادية: من عقودٍ واتفاقاتٍ وافتتاح مشاريع وبدءِ أعمالٍ، فضلاً عن المراسم الدينيّة، إذ لا يخلو منها كثيرٌ من عباداتنا اليومية.

* * *

هذه ثمانٍ وخمسون نقطةً إعجازيّةً تجديديّةً في سورةٍ مؤلّفةٍ من تسعٍ وعشرين كلمةً. إنّ كلّ نقطةٍ منها تشكّل لبِنةً واحدةً في بناءٍ لغويٍّ متكاملٍ، أحدثَ بتكامله هزّةً في أعماق العربيّ الأوّل وهو يسمع في لغة القرآن الكريم ألفاظاً غير ما عرف من ألفاظ، وأسلوباً غير ما عهد من أساليب، وفنوناً غير ما خبر من فنونٍ، لغويّةٍ أو نحويّةٍ أو بيانيّة.

وقد يخيّل لمن يقرأ القرآن اليوم أنّه أمام ألفاظٍ عاديّةٍ لا تختلف عن لغتنا اليوميّة أو عن لغة العرب القدماء على الأقلّ، والحقيقة هي غير ذلك. فصحيحٌ أنّ معظم الألفاظ، مستقلّةً عمّا قبلها أو بعدها، تبدو لنا عاديّة، ولكن المعاني القرآنيّة الجديدة التي اكتسبها بعضها، وطريقة ارتباط بعضها بما قبله أو بعده، أو طريقة تعدّي الأفعال منها إلى ما تتعدّى إليه عادةً من أسماء، جعل من معظم الألفاظ القرآنيّة من الناحية العمليّة ألفاظاً جديدة.

وسنختصّ سورة (الفاتحة) بهذا العرض السريع والموجز لطبيعة الجدّة في كلّ لفظ، مستقلاً أو مرتبطاً بغيره، ليكوّن القارئ فكرةً تقريبيّةً عن حجم هذه الجدّة في لغة القرآن، ولاسيّما أنّها لا تقتصر على ألفاظه فحسب، بل تغطّي بالقدر نفسه تراكيبه وعباراته وسبائكه أيضاً. وسندرك من خلال هذه الإحصائيّة أنّ جميع ألفاظ السورة، فيما عدا اسم الموصول (الذين) وحرف الجر المرتبط بالضمير (عليهم)، هي ألفاظٌ جديدة، إمّا بذاتها، وإمّا بطريقة استعمالها، أو بالسياق الذي وردت فيه:

الحمدُ: لفظٌ قديمٌ ولكنّه استجدّ بتعديته باللام لأوّل مرّة

للّه: لفظٌ قديمٌ استجدّ بتعدّي لفظ (الحمد) إليه باللام

ربّ: لفظٌ قديمٌ استجدّ بوقوعه لأوّل مرّةٍ في موقع (البدل) من لفظ الجلالة (الله) ثمّ بإضافته إلى لفظ (العالمين)

العالمين: مفرده قديمٌ، ولكنّه استجدّ باستخدامه جمعاً لأوّل مرّة

الرحمن (مكرر مرتين): لفظٌ جديد

الرحيم (مكرر مرتين): لفظٌ قديمٌ استجدّ بوقوعه (بدلاً) من لفظ (الله) وبمجاورته للاسم الآخر المشتقّ من جذره (الرحمن)

مالك: لفظٌ قديمٌ استجدّ بوقوعه (بدلاً) من لفظ (الله) وبإسناده إلى زمن (يوم)

يوم: لفظٌ قديمٌ استجدّ بإسناد المُلكِ إليه

الدِّين: لفظٌ قديمٌ استجدّ بمعناه الجديد، وكذلك بإسناد الزمن (يوم) إليه

إيَّاك: لفظٌ قديمٌ استجدّ بالالتفات به إلى صيغة المخاطب بدلاً من الغائب (إيّاه)

نعبد: لفظٌ قديمٌ استجدّ بالمعنى الإسلاميّ الجديد الذي أعطاه للعبادة

وإيَّاك: لفظٌ قديمٌ استجدّ باستخدامه بدلاً من (بكَ): [بك نستعين]

نستعين: لفظٌ قديمٌ استجدّ بتعديته إلى الضمير بنفسه وبدون باء (نستعين إيَّاك)

اهدِنا: لفظٌ قديمٌ استجدّ بتعديته إلى (الصراط) بنفسه وبدون حرف الجرّ (إلى)

الصراط: لفظٌ جديدٌ كلّياً على العربيّة

المستقيم: لفظٌ استجدّ بارتباطه بلفظ (الصراط)، ثمّ إنّنا لا نجد هذا اللفظ فيما وصل إلينا من الشعر الجاهليّ إلاّ مرّةً واحدةً في بيتٍ لعنترة (عبابيدُ منهمْ مستقيمٌ وجامِحُ) مع تأكيدنا دائماً لتحفّظاتنا التاريخيّة تجاه معظم ما رُوي لهذا الشاعر الذي اختلطت حوله الحقيقة بالأسطورة

صراطَ: لفظٌ جديد

أنعمتَ: لفظٌ اكتسب جدّته من ارتباطه بـ(عليهم) فأصبح معناه: هديتهم

غيرِ: لفظٌ قديمٌ استُخدم استخداماً جديداً بمعنى (وليس)

المغضوبِ: لفظٌ قديمٌ استجدّ بالمعنى الاصطلاحيّ الذي حمله مرتبطاً بـ(عليهم)

ولا: أداةٌ قديمةٌ استجدّت باستخدامها استخداماً جديداً بمعنى (وغير)

الضالّين: لفظٌ قديمٌ استجدّ بمعناه الاصطلاحيّ الجديد وهو الانحراف عن الإيمان

وهكذا نجد أنّ معظم ألفاظ السورة قد اكتسب جدّةً بطريقةٍ ما: إمّا بنفسه، وذلك بسبق القرآن إلى استخدامه لأوّل مرّة، وهو النوع الأقلّ من الألفاظ، كالعالمين والرحمن والصراط، وإمّا بغيره، وذلك بمنح القرآن له معنىً جديداً من خلال استعماله استعمالاً مختلفاً، أو ربطه ربطاً جديداً بما قبله أو بعده، وهذا النوع يشمل معظم الألفاظ الجديدة في السورة.

وسوف نجد، حيثما نظرنا في كتاب الله، أنّ ما ينطبق على سورة (الفاتحة) ينطبق في الواقع على سائر سوَر القرآن الكريم.

obeikan.com